﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [الزمر: 65]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إذا عَمَّ الفسادُ؛ جاء التَّذْكيرُ بأُصولِ الإصْلاحِ

لَمّا بيَّن تعالى في سياقِ السِّباقِ القريبِ أنَّ جماعةً تَشِذُّ عن الظّاهرِ الذي توجِبُه أدِلَّةُ التَّوحيدِ، فكفرت بآياتِ الله، فكانت مِن الخاسرين، ثم ارتقَى الحديثُ في خبرِ مَن شَذَّ مُنتقِلًا مِمَّن كفَر إلى مَن يدعو غيرَه إلى الكُفْر، وهذا هو الأشَدُّ شُذوذًا، ثمَّ يزدادُ الفُجورُ، فيدعو داعي الطّاغوتِ رسولَ الله إلى عبادةِ الطّاغوتِ، وهذا يعني أنَّ الفسادَ بلَغ مبلغَه، واتَّسَعَتْ رُقْعتُه، وعَمَّتْ؛ كانَ مِن المناسب تقريرُ هذا الأصلِ النّاهي عن الشِّرْكِ، والمُؤثِم للشِّرْك، وأنَّه أصلٌ في النُّبوّاتِ كلِّها، في أقدمها، وفي أعرقِها، وفي أوَّلِها، وفي آخِرِها، فهو الأصلُ الذي قامَتْ عليه، وأنَّه لا مُسامَحة معَ مَن تسامَحَ في شيءٍ منه، ولو كان هذا الَّذي تسامَحَ مِن الذين أنعمَ اللّهُ عليهم مِن النَّبيّينَ، والذين اختارَهُم ربُّنا، وجعَل فيهم رسالاتِه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيَحۡبَطَنَّ﴾: (حبط) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على بُطْلانٍ وألَمٍ، يُقال: أحْبَطَ اللّهُ عملَ الكافرِ، أي: أبْطَلَه، وأمّا الألَمُ؛ فالحبَطُ: أنْ تأكُل الدّابَّةُ حتَّى تُنْفَخَ لذلك بطنُها، والمقصودُ بقوله تعالى هنا: ﴿لَيَحۡبَطَنَّ﴾: ليفسدنَّ، فيبطلنَّ عملك، فلا يُبْقي له أثرًا ما مِن جهة القادر؛ لأنَّه أشركَ به فيه، وهو غنيٌّ لا يقبل إلّا الخالص؛ لأنَّه لا حاجة به إلى شيء، وأمّا مِن جهة غيرِه؛ فلأنَّه لا يقدرُ على شيء[2].

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 407 - 408.

(2) ابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (حبط)، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 468.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشِّرك بالله هو الخسران المبين

هذه الآيةُ تُخاطِبُ أكرمَ خلْقِ الله على اللهِ رسولَ الله محمَّدًا ﷺ على سبيل الفرض[1]، وتقولُ له تعريضًا بكلِّ من أشرك[2]: إنَّنا أوحينا إليك وإلى النَّبيّينَ والمُرْسَلينَ مِن قبلك أنَّه مَن أشْرَكَ منكم يُحْبَطُ عملُه، فلا يُجازَى عليه؛ لضياعِ ثوابِه، وذَهابِه وبطلانه، ويكونُ في الآخرة من الخاسرين.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الوَصْل بالواو:

الدَّعوة إلى التوحيد ونبذ الشِّرك من الأصول التي كثرت في كتاب الله تعالى

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ الآية، تعطفُ ما بعدَها على مجموعِ قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾، والمعطوفُ يُؤكِّدُ الإنكارَ الذي في المعطوف عليه بذِكْرِ علَّتِه، والمعنى: كيف أعبدُ غيرَ الله، وأنا خاتمُ مَن أوحَى اللهُ إليهم - وهم صفوةُ خلْقِه - أنَّ مَن أشركَ منهم؛ فهو من الخاسرين، وهذه هيَ اللُّحْمةُ التي بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، فإنكارُ أمرِهم أنْ يعبد غير اللهِ هوَ امتثالُه لأمرِ ربِّه باجتنابِ الشِّرْكِ، ما ظهَر منه، وما بطَن[3]، وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ ما بعدَ الواو معطوفٌ على جملة: ﴿قُلْ﴾، وأنَّ موقعَ المعطوف مِن المعطوفِ عليه هو التَّأييدُ لأمرِه بأنْ يقولَ الرَّسول للمشركينَ تلك المقالةَ مقالةَ إنكار أنْ يطمعوا منه في عبادة الله، بأنَّه قولٌ استحقّوا أنْ يُرموا بغلظته؛ لأنَّهم جاهلون بالأدلَّة، وجاهلون بنَفْسِ الرَّسول وزكائها، وأُعْقِبَ بأنَّهُم جاهلون بأنَّ التَّوحيدَ هو سُنَّة الأنبياء، وأنَّهم لا يتطرَّقُ الإشراكُ حوالي قلوبِهم[4].

(1) التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء: 8/ 591.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 58.
(3) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 409.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 58.

سِرُّ التَّوكيدِ في قوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾:

في ذاتِ التَّوكيدِ خصوصيَّةٌ تُصوِّرُ كمالَ خصوصيَّةِ المعنى المؤَكَّدِ

أكَّد القرآن الجملة بلام القَسَم و(قد) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾؛ تأكيدًا لِما في الخبرِ مِن التَّعريضِ بالمشركينَ، بأنَّهم حاولوا النَّبيَّ ﷺ على الاعترافِ بإلهيَّةِ أصنامِهم[1]، وهذه اللّامُ الدّاخلةُ على حرف التَّحْقيقِ (قد) هيَ لامُ التَّوكيد، والأصلُ أنْ تدخل على الفِعْل، ولكنَّها دخلَتْ على كلمة (قد)؛ لأنَّ كلمة (قد) إذا دخلَتْ على الفِعْلِ؛ صارَتْ جزءًا منه، فدخلَتِ اللّامُ على جزءِ الفِعْلِ، وهذا يعني أنَّ كلمة: (قد) تجعلُ التَّحقيقَ كأنَّه جزءُ الفِعْل، واللّامُ مُؤكِّدةٌ لهذا التَّوكيد، وهذا يعني أنَّ المعنى المُحقَّقَ المُؤكَّدَ له عند الحقِّ جلَّ شأنُه مقامُ أيِّ مقامٍ؛ حتَّى أكَّدَه بهذه الصّورة.

علَّة التَّعبير بالوَحْي مادَّةً وصيغَةً:

تـقـريـر الـخـبـر مـصـحـوب بشديد الغضب

الوحيُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ هو الإعلامُ مِن اللّه بواسطةِ المَلَكِ[2]، وإنَّما عَبَّر به القرآنُ دونَ الإرسالِ ونحوِه؛ ليرشَح، ويُضْفي على الموحَى به الجلالَ والأهميَّةَ الشَّديدَةَ والغرابةَ والعظمةَ؛ لأنَّ معنَى الإرسالِ في نفْسِه مألوفٌ، وأمّا الوَحْيُ؛ فغيرُ مألوفٍ، ففيه احتفالٌ بمعنى الكلام، يُضاف إلى الاحتفال به بحضورِ الواو في صدرِ الآيةِ على خلافِ الظّاهر كما تقدَّم، وفي التَّعبيرِ به معنى الحَسْمِ والفَصْلِ، والدَّلالةُ على الغضب؛ لأنَّ أصلَ الوحي الإشارةُ السَّريعةُ.

ونظَم القرآنُ معنى الوَحْي فعلًا ماضيًا؛ لبيانِ أنَّه أمرٌ مُقرَّرٌ لدى الأنبياءِ والرُّسُلِ السّابقينَ، ولدى نبيِّنا محمدٍ ﷺ فهذا الموحَى بهِ أصْلُ أُصولِ الدّين الإسلاميِّ.

دلالة بناءِ الفِعْلِ لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه:

كان مِن الممكن أنْ يُقال: (ولقد أوحى اللّه إليك وإلى الذين من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 58.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 58.

قبلك)، ولكنْ بنَى القرآنُ فِعْلَ الوحي لما لم يُسَمَّ فاعلُه، فحذَف الفاعلَ - وهو الحقُّ سبحانه - إيجازًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ المقصود الأصليَّ هو الوحيُ الذي هو: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وهذه إشارةٌ ثانيةٌ إلى العناية بمضمون الجملة التي لم تتكرَّر في الكتاب العزيز[1].

في حذف الفاعل تنزيهُه عن سياقِ الإشراك به؛ دلالةً على أنَّه لن يكون

علَّة التَّعبير بـ: (إلى):

قولُه تعالى: ﴿إِلَيْكَ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّق بالفعل: ﴿أُوحِيَ﴾، و(إلى) حرفٌ معناهُ الانتهاءُ إلى الغايةِ في الزَّمان والمكانِ وغيرِهما، والضَّميرُ الذي دخلَتْ عليه (إلى) هو كافُ خطابِ نبيِّنا ﷺ والمعنى هنا: هذا الوحيُ مُنْتهٍ إليكَ يا محمَّدُ، ففي (إلى) إشارةٌ إلى أنَّه ﷺ المُبلِّغُ عن الله، الحاملُ أمانتَه، المُصطفَى من قِبَلِه، ففيها دلالةُ التَّكليفِ والتَّشريفِ الخاصَّيْنِ به ﷺ نبيًّا ورسولًا، وما قلناه في (إلى) في قوله تعالى: ﴿إِلَيْكَ﴾ يُقال فيه في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾، والذي هو معطوفٌ بالواوِ على قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾.

نبيُّنا رأسُ الموحِّدينَ والدُّعاةِ إلى التَّوحيدِ

سِرُّ تسلُّطِ (إلى) على ضميرِه ﷺ:

كان من المُمكِن أنْ يُقال: (ولقد أوحي إلى النَّبيّينَ أو الرُّسُل) بعمومِ المعنى، ولكنَّ القرآنَ خصَّ نبيَّنا ﷺ بالذِّكرِ على جهة الاستقلالِ، فقال: ﴿إِلَيْكَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ لمراعاةِ سياقِ السِّباقِ القريبِ؛ إذ أُمِرَ بالرَّدِّ على مَن أمَروه بالكفر في الآيةِ السّابقة: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، وهذه الآيةُ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ﴾ الآية، تعليلٌ وتوكيدٌ للآيةِ السّابقة، فلا بُدَّ أنْ يكون له ﷺ حضورٌ مُستقِلٌّ في هذه الآيةِ.

الاحتفالُ بالوَحْيِ إليه ﷺ للتمكين في مواجهةِ أهلِ الشِّركِ

علَّةُ ذِكْرِ الأنبياءِ والرُّسُلِ السّابقينَ:

كان من المُمكِن أنْ يَقْتَصِرَ القرآنُ على المُتعلَّق الخاصِّ به ﷺ وهو ﴿إِلَيْكَ﴾؛ لبناءِ هذه الآيةِ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، على الآيةِ

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 410.

السّابقة: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾ الآية، ولكنَّهُ ذَكَرَ الأنبياءَ والرُّسُلَ السّابقينَ قبلَ نبيِّنا ﷺ؛ للإشارة إلى أنَّ مَن سبَق رسولَنا لم يكُن منه إشراكٌ باللّه، أفيكونُ مِن رأسِ الأنبياء والمرسلين شيءٌ مِن ذلك؟ ولتسليته بأنَّ مَن قبلَه مِن الأنبياءِ والرُّسُلِ أوذوا بمِثْلِ ذلك، ولأنَّ "التَّعميم أدْعَى إلى التَّقبُّلِ"[1]، فهو منهاجٌ لجميعِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، وليس سيِّدُنا محمدُ بن عبد اللّه بدعًا فيه، فليتقبَّل مشركو مكَّةَ دعوتَه ﷺ إيّاهُم إلى إخلاصِ العبادةِ للّه ربِّ العالَمينَ، وفيه أيضًا بمُلاحَظةِ أهل الكفر والشِّرك دلالةٌ على زيادة الغضب وشدَّته؛ إذ كيف يكفرون بوحي اللّه تعالى لجميع أنبيائِهِ ورسله؟.

ما ظاهرُه الإطنابُ قد يكونُ ضَرْبًا مِن الإيجازِ

نكتةُ تقديم ذِكر الوحي إلى النَّبيِّ ﷺ:

كان مِن الممكن أنْ يقول القرآن: (ولقد أوحي إلى الذين من قبلك وإليك)؛ لا سيَّما أنَّ هذا التَّرتيبَ يتناسب مع باقي الآيةِ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وهو ترتيبٌ يُراعي الزَّمانَ، ولكِنَّ المقصودَ بالذِّكرِ في السّياقِ هو قولُه تعالى: ﴿إِلَيْكَ﴾؛ لكون أهل الكفر والشِّرك أمروه بعبادة غير اللّه، فأمره اللّه بالرَّدِّ عليهم في الآية السّابقة، وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ فمِن تمامِه، وتابعٌ له وخادِمٌ لمعنى السّياق، فلهذا أُخِّرَ في الذِّكرِ.

هو ﷺ مركزُ حركة المعنى في السّياق

فائدةُ تكرار حرف الجرّ (إلى):

كرَّرَ القرآنُ الحرفَ (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾، وقد سبَقَ ذِكرُهُ في قوله تعالى: ﴿إِلَيْكَ﴾، وذلك لكمالِ الاعتدادِ بالموحَى به إلى كلِّ نبيٍّ ورَسولٍ، فالاحتفالُ بذِكرِهم صورَةٌ للاحتفالِ بالموحَى به، وهو: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

هذا الموحَى به مُكرَّرٌ تقريرُه والتَّنبيهُ عليه معَ كلِّ نبيٍّ ورسولٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 468.

علَّة التَّعبير بالموصوليَّة:

بـلـغ الإعـلانُ عـن هـذا الأصل المـوحَـى بـه كـلَّ مبلَغٍ مُمْكِنٍ

لَمّا كان الاسمُ الموصولُ لا يُعبَّرُ به إلّا وصلتُه معلومةٌ للسّامعِ مِن قبلُ، أو كالمعلومةِ له، بحيثُ إذا سمِعَها سلَّمَ بها؛ نظَم القرآنُ الإخبارَ عن مَن سبَق نبيَّنا محمَّدًا ﷺ مِن الأنبياء والرُّسُل، في صورة الموصولِ وصِلَتِه، فقال: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ ليُقيم الحُجَّة على مَن أمروا نبيَّنا ﷺ بالكفر والشِّرك، فهُم يعلمون أخبارًا عن الأمم السّابقة، أفأشْرَك أحدٌ مِن الأنبياء والرُّسل السّابقين، وأمرُهم وأحوالُهم معلومةٌ مشهورةٌ بالله ﷻ؛ حتّى تأمروا الرَّسولَ مُحمَّدًا بذلك؟ بل كان ينبغي أنْ يترتَّبَ على ذلك أنْ تكونوا مِثْلَهم؛ لأنَّ الأنبياء والرُّسُلَ "هم الذين حملوا رسالةَ التَّوحيد إلى خلْقِه، وكانَتِ الخُطْوةُ الأولى هي تبرئتهم هم أنفسهم مِن الشِّرك، وتحذيرهم منه، وأنَّه لا مُسامَحةَ فيه"[1].

دلالة التَّعبير بالقبليَّة:

الأنبياءُ والرُّسُلُ قبلَ رسول الله زمانًا، وهو ﷺ خاتمهم

كلمة (قبل) مجرورةٌ بـ: ﴿مِن﴾، والذين مِن قبله هم الأنبياء والرُّسُل، فالمرادُ القبليَّةُ في صفةِ النُّبوَّةِ، فـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ مُرادٌ به الأنبياءُ[2]، وفي القبليَّةِ إشارةٌ إلى أنَّه ﷺ خاتَمُهُم، ومِن شأنِ الخاتم واللّاحقِ في حياةِ النّاسِ أنْ يكونَ أكملَ المَعْدودينَ، وكذلك نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ.

علَّة التَّصريحِ بكاف الخطاب النَّبويِّ:

أنبياءُ الله تعالى جميعًا دينهم واحد

كان مِن المُمكِن أنْ يقول القرآنُ: (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلُ) بحذف كاف الخطاب المقصود به النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ مِن: ﴿قَبْلِكَ﴾ بقرينة: ﴿إِلَيْكَ﴾، فهو قرينة الحذف ودليلُ المحذوفِ، ولكنَّ القرآنَ أرادَ تصويرَ الخيطِ الجامعِ والعُرْوةِ الوثْقَى بينَ أنبياءِ

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 410.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 58.

اللهِ ورُسُلِه جميعًا، وهو الوحي والرِّسالة والنُّبوَّة، وأنَّه ما ذكَر الذين مِن قبل رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ إلّا مِن أجل ذلك، فكان مِن البلاغة والحِكْمة إضافة: (قبل) إلى كاف الخطابِ النَّبَويِّ: ﴿قَبْلِكَ﴾.

بلاغةُ القَسَم في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾، اللّامُ فيه لامُ القَسَم، موطِّئةٌ لهُ، أي: واللّهِ لئنْ أشركتَ، وفي القَسَمِ توكيدٌ لحقيقة الشِّرك، أي: لئن أشركت بالله شيئًا يا محمَّد، ليبطلنَّ عملك، ولا تنال به ثوابًا، ولا تدرك جزاءً إلّا جزاء من أشرك بالله، وهذا من المؤخَّر الذي معناه التَّقديم، ومعنى الكلام: ولقد أوحي إليك لئن أشركت؛ ليحبطنَّ عملك، ولتكونَنَّ من الخاسرين، وإلى الَّذين من قبلك، بمعنى: وإلى الذين من قبلك من الرُّسل من ذلك، مثل الذي أوحي إليك منه، فاحذر أن تشرك بالله شيئًا، فتهلك[1]، وهذا القسم يدلُّ على الغضب الشَّديد على أهل الشِّرْكِ والكُفْرِ، وكمال الرِّضا على أهلِ التَّوحيدِ والإيمانِ.

التَّوحيدُ معنًى عميقٌ جِدًّا، وهو قضيَّةُ الوجودِ الإنسانيّ

بلاغةُ أسلوبِ الشَّرط:

كلمةُ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ أداة شرطٍ دخَل عليها لامُ القَسَم، فاجتمع القَسَمُ والشَّرْطُ، وإذا كان أسلوبُ القَسَمِ مفيدًا للتَّوكيدِ؛ فإنَّ أسلوبَ الشَّرطِ فيه نوعُ حَسْمٍ وفَصْلٍ وقَطْعٍ في تقريرِ المعنى، وهذا يُضْفي عليه الجلالَ والهيبةَ والرَّهْبةَ، مِمّا يُؤكِّدُه، ويُحقِّقُه في النَّفْسِ.

أسلوبُ الشَّرطِ يدلُّ على غاية وضوحِ المعنى، وأنَّ المرادَ تمكينُه في الذِّهْنِ

علَّة التَّعبير بـ: (إنْ):

عبَّر القرآنُ بكلمة الشَّرْط: (إنْ) دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾، والخطابُ للنَّبيِّ محمَّدٍ، أو لكلِّ نبيٍّ، والأصلُ في: (إنْ) ألّا يكونَ الشَّرط فيها مقطوعًا بوقوعِه؛ لشكٍّ فيه، أو لنُدرتِه،

الحكم الذي لنْ يكونَ مَوْقِعٌ لـ (إنْ)

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 411.

أو لاستحالتِه، أو لنحو ذلك، وإشراكُ الأنبياءِ والرُّسُلِ محالٌ، فكلمة (إنْ) على أصلِها والظّاهرِ منها.

علّة التّعبير بالشِّرك:

الشِّرْكُ هو حالُ القومِ المُعرَّضِ بهم

عبَّر القرآنُ بالشِّرك دون الكفرِ في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ عدمُ إخلاصِ العبادةِ للّه سبحانه، فالشِّرْكُ هنا هو الشِّرْكُ الأعظمُ الذي هو إثباتُ شريكٍ للّه تعالى، والمعنى: لئن أشركتَ شيئًا مِن الأشياءِ في شيء مِن عملِكَ باللّه[1]، ولأنَّ أهلَ الكفرِ والشِّرك أمروا نبيَّنا ﷺ بعبادة غير اللّه مِن آلهتهم معَ اللّهِ، والقومُ المشركونَ عبدوا غير اللّه؛ ليُقرِّبَهُم إلى اللّه زلفى، ففي التَّعبير بالشِّرْك تعريضٌ بهم بأنَّهم أشركوا، وأنَّ شركهم يُحبط أعمالهم، ويجعلُهم مِن الخاسِرينَ.

سِرُّ حذفِ متعلّق الإشراك:

في الحَذْفِ إسْراعٌ إلى ذِكْـرِ جـزاءِ الإشراكِ تخويفًا وإنذارًا

فِعْلُ الإشراكِ يتعدَّى بنَفْسِه إلى مفعولٍ، وإلى مفعولٍ ثانٍ بواسطةِ حرفِ جَرٍّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾ [طه: 32]، وقوله: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة: 12]، وقد يُحْذَفُ المفعولُ الأوَّلُ، ويتعلَّقُ به جارٌّ ومجرورٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝١١٦﴾ [النساء: 116]، وفي قولِه تعالى هنا: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾، لم يذكُر القرآنُ للإشراكِ متعلِّقًا؛ لشدَّة ظهورِ أنَّ المعنى: (لئن أشركت باللّه شيئًا)؛ لأنَّ هذا المعنى أصلُ الأصولِ في النُّبوّاتِ، ففي الحَذْفِ دلالةٌ على أنَّ هذا الأصلَ مِن الأصولِ المُقرَّرةِ المعلومةِ في شريعةِ كلِّ نبيٍّ ورَسولٍ، فإنَّما يُحْذَفُ المعلومُ الذي قامَ عليه الدَّليلُ، والحَذْفُ إيجازٌ يتناسب معَ الحَسْمِ والفَصْلِ والغَضَبِ، ففيه ظِلال هذه المعاني، وهذا ضَرْبٌ مِن تحقيق المعنى في النَّفْسِ؛ لأنَّه يلفتُ إلى معنى الكلامِ، ويوقِظ النَّفْسَ له، فيتمكَّنُ فيها.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 468.

دلالةُ الإسناد في فعل الشِّرك:

التَّوحيدُ مَقْصِدُ المَقاصِدِ القرآنيَّةِ

في إسناد فعل الشَّرْك للمخاطَب، وتَرتيب حَبْطِ العملِ عليه والكون مِن الخاسرين، في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، على أنَّ الخطابَ في: ﴿أَشْرَكْتَ﴾ له وحده، أو له ولمَن قبلَه مِن الأنبياء والرُّسُل، وذلك إنَّما هو مِن بابِ فَرْضِ المُحالِ، ذكَرَه على جهة الإسنادِ؛ ليكون أرْوعَ للأتْباع؛ لأنَّ اللَّه يعلمُ أنَّ المصطفين الأخيار مُبرَّؤون مِن الشِّرك، والمقصودُ مِن هذا الفَرْضِ والتَّقديرِ: هو بيانُ شناعةِ الشِّرْك، وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يباشره، وهم أنبياء اللَّه تعالى، فكيف بمن عداه؟[1].

علَّة التَّعبير بالحَبْطِ مادَّة وصيغةً:

لا يُقبَل مع الشِّرك أيُّ عمل

جعَل القرآنُ جوابَ القَسَم - وهو جوابُ الشَّرط في المعنى - معنى الحَبْطِ في قوله تعالى: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؛ مراعاةً لمَن أجرَى القرآنُ الكلامَ عليه؛ وإنْ كان المقصودُ التَّعريضَ بأهلِ الشِّرك مِن قومه وغيرِهم مِن أُمَّته، وهو الرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ مع ملاحظة الذين مِن قبلِه أيضًا؛ لأنَّه إذا عمِل الرَّجُلُ عمَلًا، ثم أفْسَدَه، قيل: حَبِطَ عملُه، وأحْبَطَه صاحِبُه، وأحْبَط اللَّه أعمال مَن يُشرك به، ففيه معنى الإفسادِ مع الإشارة إلى البُطْلانِ، والمعنى: لئن أشركتَ؛ ليفسدنَّ، فيبطلنَّ عملك، فلا يُبْقي له أثرًا ما مِن جهة القادر؛ لأنَّه أشركَ به فيه، وهو غنيٌّ لا يقبل إلّا الخالص؛ لأنَّه لا حاجة به إلى شيءٍ، وأمّا مِن جهة غيرِه؛ فلأنَّه لا يقدرُ على شيء[2]، ونظَم القرآنُ الحبْطَ فعلًا مضارعًا: ﴿لَيَحْبَطَنَّ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه لا اعتدادَ بأيِّ عملٍ صالحٍ يتجدَّدُ مِن العبدِ معَ فسادِ التَّوحيدِ بالشِّرك، فكلَّما عمِل عمَلًا صالحًا؛ أحْبَطَه الشِّرْكُ، فهذا المضارعُ فيه معنى الحال والاستقبال.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 278.

(2) ابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (حبط)، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 468.

سِرُّ التَّوكيدِ:

التَّشديدُ في تقريرِ الجزاءِ صورةٌ لعِظَمِ الجُرْمِ

أكَّد القرآنُ فِعْلَ الحَبْطِ وفِعْلَ الكونِ بنون التَّوكيد الثَّقيلة، في قوله تعالى: ﴿لَيَحْبَطَنَّ﴾ - ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾؛ للإبلاغِ في التَّرهيبِ مِن الشِّركِ باللهِ شيئًا، بالإبلاغِ في تقرير ما يترتَّبُ عليه مِن حبْطِ العملِ، والكونِ مِن الخاسرينَ، وهذا التَّأكيدُ يُلاحِظُ أيضًا إنكارَ المشركينَ مضمونَ الكلامِ؛ لأنَّ ذِكْرَ الشِّرْكِ هنا للتَّعريضِ بهم.

علَّة التَّعبير بالعَمَلِ مادَّةً وصيغةً:

العملُ كالبناء الذي يتآكَلُ

جعَل القرآنُ العملَ فاعلًا للحبْطِ في قوله تعالى: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؛ للإشارة إلى خيْبَة السَّعْي، وأنَّ المُشْرِكَ يَبْني ما يهدمُه، ويهدمُ ما يَبْنيه في آنٍ، ونظَمَه اسْمًا؛ للدَّلالة على اطِّرادِ الحَبْطِ في كلِّ عمَلٍ، وبهذا يكون القرآنُ قد جمعَ بينَ التَّجدُّدِ والحُدوثِ والاستمرارِ: ﴿لَيَحْبَطَنَّ﴾ وبينَ الثُّبوتِ والدَّوامِ: ﴿عَمَلُكَ﴾ في جملةِ جوابِ القَسَم، وقال القرآنُ: ﴿عَمَلُكَ﴾، ولم يقُل: (أعمالك)؛ إبلاغًا في تقرير حَبْطِها.

دلالةُ الإضافة:

سيُبْصِرُ المُشْرِكُ ضَياعَ عملِه أمامَ عينيه في الدُّنيا والآخرة

أضافَ القرآنُ العملَ إلى كافِ الخِطابِ؛ لكونِ الإضافةِ أبلغَ في التَّرهيب، وأقعد في التَّهديدِ للمُخاطَبِ في الظّاهرِ، وللمُعرَّضِ بهم في الباطِنِ، وهم أهلُ الشِّرْكِ والكُفْرِ، وسيُبْصِرُ المُشْرِكُ ضَياعَ عملِه أمامَ عينيه في الدُّنيا والآخرة.

سِرُّ الحذفِ:

هذا الحَذْفُ ضَرْبٌ سخيٌّ مِن الإيجازِ

في قولِه تعالى: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، للعملِ صفةٌ محذوفةٌ بقرينةِ قوله تعالى: ﴿لَيَحْبَطَنَّ﴾، أي: ليحبطنَّ عملُكَ الصّالحُ، وهو "الذي يُرْجَى منه الجزاءُ الحَسَنُ الأبَديُّ"[1]، وحذفُ الصِّفةِ يُراعي الذي جَرَى عليه الكلامُ ولفظُ التَّعريضِ، والمُعرَّضَ بهم وهم أهلُ الكُفْرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 59.

والشِّرْكِ، فعملُ سيِّدِنا رسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ ليس إلّا صالحًا؛ لأنَّه المعصومُ الكاملُ المُكمَّلُ، فلا حاجةَ لذِكْرِ الصِّفةِ، ففي هذا الحَذْفِ إبلاغ في تقريرِ الحَبْطِ وتوكيدِه وتحقيقِه، وهذا إبلاغٌ في التَّرهيبِ والتَّنْفيرِ مِن الإشراكِ باللهِ، والتَّهْديدِ عليه.

نكتةُ تقديم حبط العمل على الخسران:

العملُ عمودُ العقيدةِ وعمودُ الحياةِ

قدَّم القرآنُ جملةَ: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ على جملة: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ لأنَّ الجملةَ الثّانيةَ إنْ كانَتْ مِن عطفِ المُسبَّبِ على السَّببِ، أي: ولتكونَنَّ مِن الخاسرين؛ بسبب حُبوطِ عملِك، فإنَّ المقصودَ بالأصالةِ هو المُقدَّمُ، والثّاني تابعٌ خادِمٌ له، وحركةُ المعنَى جاريَةٌ على هذا النَّسَق، إنْ أشركْتَ؛ حبِط عملُك، وإنْ حبِط عملُك؛ كنتَ مِن الخاسرينَ، فجملةُ الجوابِ الأولى سببٌ في وجودِ جملةِ الجوابِ الثّانيةِ، فكلٌّ منهما جوابٌ لجملة: (إن أشركت)، أي: لئن أشركت؛ ليحبطنَّ عملك، ولئن أشركت؛ لتكونَنَّ مِن الخاسرين، وهذا الوجهُ يبرزُ عظيمَ جُرْمِ الشِّرْكِ؛ بترتُّبِ شيئَيْنِ عليه مِن جهةٍ، ويبرزُ جزاءَ حَبْطِ العملِ الصّالحِ، وأنَّه مسلَكُ الخُسْرانِ الأعظمُ، أي: إنَّه خسرانٌ عظيمٌ جِدًّا مِن جهةٍ أُخرى، وإنْ كان مِن عطفِ جملةٍ على جملةٍ مِن غير ملاحظةِ عَلاقَةِ السَّببيَّةِ؛ فإنَّ حَبْطَ العملِ بأنْ يكونَ لَغْوًا غيرَ مُجازًى عليه سابقٌ على الكونِ مِن الخاسرينَ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، فلهذا قُدِّم عليه[1].

سِرُّ الوَصْلِ بالواو:

الشِّرْكُ خُسرانٌ عظيمٌ يومَ القيامةِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ معطوفٌ بالواو على قولِه تعالى: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ، فهما خبرانِ لفظًا ومعنًى، وحَبْطُ العملِ خُسْرانٌ وخسارَةٌ، والمُحدَّثُ

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 427 - 428، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 412.

عنه فيهما واحدٌ، وحسَّنَ الوصلَ بالواو اتِّفاقُ الجملتَيْنِ في الفِعْليَّةِ والمُضارَعةِ، وفي التَّوكيدِ بالنّونِ الثَّقيلةِ، والواوُ لا يبرحُها معنى المُغايَرَةِ، فدلَّتْ على أنَّ الخسرانَ شيءٌ غيرُ حَبْطِ العمل، وأنَّ حبْطَ العملِ شيءٌ غيرُ الخُسْرانِ، والمعنى الجديدُ الذي في جملة: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هو عقابُ الشِّرْكِ، فالشِّرْكُ له عقابانِ، الأوَّلُ: إحْباطُ العمل، فلا يُنتفع به، والثّاني العقوبةُ على الشِّرك، وهي الكونُ مِن الخاسرينَ الذين خسروا أنفسَهُم؛ بسبب موتِهم على الرِّدَّةِ، وهذا يعني أنَّ الخُسْرانَ عقوبةُ الرِّدَّةِ، وهذا غيرُ إحْباطِ العَمَلِ[1].

دلالة التَّكرار:

كان ظاهرُ عَطْفِ قولِه تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ على قولِه تعالى: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ غيابَ اللّامِ الدّاخلةِ على فِعْلِ الكون: (لتكونَنَّ)؛ لأنَّ المعطوفَ على الجوابِ جوابٌ مِثْلُه، ففي تكرارِها إشعارٌ باستقلالِ ما بعدَها عمّا قبلَها، واحتفالٌ واعتناءٌ به، وهذا إبرازٌ لعِظَم الخسارة، ولفْتٌ إليها، وتحقيقٌ وتوكيدٌ لحصولِ تلك الخَسارةِ.

تكرارُ اللّام مُشْعِرٌ بخسارةٍ مستقلَّةٍ للمُشْرك غيرِ مُسبَّبَةٍ عن حَبْطِ العمل

دلالة التَّعريف بـ(ال):

عرَّف القرآنُ خبرَ الكَوْنِ بـ(ال) في قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، والتَّعريفُ بـ (ال) يَحتمل أنْ يكونَ للاستغراقِ، ويَحتمل أنْ يكون للجِنْسِ، والأعلى سياقًا أنْ تكون (ال)؛ للدَّلالة على معنى الكمالِ في بابِ الخَسارةِ أو الخسران؛ لأنَّ المفقودَ هنا جِدٌّ عظيمٍ، وهو الإيمانُ والعَمَلُ الصّالحُ.

عظيمُ الخسران خسرانُ المشركين

علَّة التَّعبير بالخسارة:

عبَّر القرآنُ بالخَسارةِ وصْفًا لمَن أشركَ، فحبِط عملُه في قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، مُلاحظةً لقولِه تعالى في سياقِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 13/ 427 - 428، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 411 - 412.

فاقِدُ التَّوْحيدِ فاقِدٌ لكلِّ شيءٍ خاسِرٌ لهُ

السِّباق: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾، أي: بفوزهم؛ للإشارةِ إلى أنَّ ثمَّة تجارةً رابحةً معَ اللهِ سبحانه، وأنَّ رأسَ مالِ الإنسانِ فيها هو الإيمانُ، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الصف: 10 - 11]، وأنَّ اللهَ اشترى مِن المؤمنين الموحِّدينَ أنفسهم، وأنَّ الذين أشركوا، واشتروا الضَّلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم[1]، وهذا التَّعبيرُ يُلاحِظُ أيضًا قولَه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، وهذا ظاهرٌ، ويرجعُ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ﴾، فيُفْهِم أنَّ المشركَ الخاسِرَ قد كفر بآيات اللهِ تعالى، وهذا يعني: أنَّ هذا الشِّركَ هو الشِّرْكُ الأعظمُ، وأنَّ صاحِبَه كافِرٌ، وهذا التَّعبيرُ ألصقُ بحَبْط الأعمالِ الصّالحةِ، فلا ثوابَ ولا جزاءَ عليها.

دلالة الاسميَّة:

الخسارةُ صِفَةٌ مُستقِرَّةٌ للمُشْرِكِ

نظَم القرآنُ خسارةَ المُشْرِكِ اسْمًا في قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَـٰسِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُتَّصِفَ بالشِّركِ خسارتُه دائمةٌ ثابتةٌ، فهي لا تَنْفَكُّ عنه، وهو لا يَنْفَكُّ عنها، وهذا يعني عظمةَ هذه الخسارةِ، بما يفيدُ تهويلَها، والغرضُ مِن ذلك الإبلاغُ في ترهيبِ أهلِ الشِّرْك مِن شركِهم، وعظيمِ تهديدِهم عليه.

سِرُّ الحذفِ:

وجوهُ خَسارةِ المُشْرِكِ في الدُّنْيا والآخِرةِ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡخَـٰسِرِينَ﴾ اسمُ فاعلٍ مِن الفِعْلِ الثُّلاثيِّ: (خَسِرَ)، وهو يعملُ عملَ الفِعْلِ، وفعلُه يتعدَّى بنفسِه إلى مفعولٍ، كما في غير قليل مِن آي القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف: 9]، وسِرُّ حذفِ المفعولِ الدَّلالةُ على عمومِه؛ إبلاغًا في التَّرهيبِ والتَّنْفيرِ مِن الشِّرْكِ.

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 411 - 412.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»